

الأنزمة الديمغرافية في تاريخ المغرب الحديث

(القسم الثاني)

محمد استيتو

Mohamed STITOU

La crise démographique au Maroc moderne (2ème partie)

Résumé

Dans la première partie, et selon des estimations présentées par les contemporains et les chercheurs, on a remarqué que la population marocaine à l'époque moderne a stagné sinon chuté. Dans cette deuxième partie nous essayerons de montrer la gravité de la crise démographique causée par les guerres, les calamités de toutes natures et l'émigration.

Demographic crisis in Modern Morocco (2nd part)

Summary

In the first part, and according to the estimates presentes by the contemporaries and researchers, it was reported that the Moroccan population stagnated or even decreased during the period concerned. In this second part, we shall try to show the seriousness of the demographic crisis caused by wars, various calamities and emigration.

تناولنا في القسم الأول من هذا المقال⁽¹⁾ بعض صعوبات البحث في موضوع الديمغرافيا في تاريخ المغرب ، ثم قدمنا مجموعة من الأرقام التقديرية لعدد السكان ، بالنسبة لكل قرن من العصر الحديث ، وتبين أن الأعداد المقدمة تتأرجح بين التراجع والركود . ونتابع في هذا القسم الأخير بعض مظاهر الأزمة .

ثالثا : مظاهر الأزمة الديمغرافية

1 - كثرة الحروب والاستبداد

يكاد عدد المعارك والحروب وشتى أنواع المواجهات والاصطدامات لا يحصى في تاريخ المغرب الحديث ، وبالرغم من ذلك فإن هذه الظاهرة لم تحظ بعد بالاهتمام الكافي من قبل الباحثين ، علما أنه كان يترتب عنها في كثير من الحالات انعكاسات خطيرة جدا على الأوضاع العامة . لذلك فهي لا تزال في حاجة إلى دراسات تتناولها ، ليس فقط بصفاتها عاملا من عوامل صنع التاريخ ، أو أداة لزعزعة الاستقرار السياسي والأمن الاجتماعي ، أو وسيلة لقطع السبل وخلخلة البنى الاقتصادية وتدمير المنشآت المنتجة ووسائل الإنتاج ... ، بل وبصفاتها أيضا من " مؤسسات الفناء الإرادي ... بالمفهوم السسيولوجي للكلمة " .⁽²⁾ ، وباعتبارها مؤسسة " متلازمة مع البنيات الاجتماعية والذهنية وما تمليه من سلوكات " .⁽³⁾ ، ولأن ما قد يظهر بعدها عادة من مجاعات وأوبئة ليس إلا نتائج وعواقب ثانوية⁽⁴⁾ ، بينما تكمن خطورتها الحقيقية في كونها " أداة للتفتيل الجماعي المنظم ، فلا حروب بدون إبادة ، لهذا لكل الحروب نتائج ديمغرافية " .⁽⁵⁾ خطيرة ، كالحدم من النسل ، إضافة إلى مظاهر مآسي التشريد . وقد أصبح من " المؤكد أن المدد الطويلة لحروب الإبادة غالبا ما تلي فترات ((الازدهار)) الديمغرافي " .⁽⁶⁾

فهل ينطبق هذا على تاريخ المغرب الحديث ؟ ومنذ متى ؟

الواقع أن هذه الظاهرة بدأت تتأسس وتتوسع دائرتها ، وتتركس منذ أن بدأ الانحصار والتراجع يصيب اقتصاد الغزو وانكماش عائدات مراقبة الطرق التجارية ، وتزامن ذلك مع انتقال المعارك والحروب من " خارج " حدود البلاد إلى تخومها ثم إلى داخلها ، ولاسيما بعد هزيمة المغاربة في وقعة العقاب سنة 609 هـ / 1212 م .

¹ - نشر في العدد الأول من مجلة " كنانيش " ، صيف - خريف 1999 .

² - Gaston BOUTHOUX; La guerre. Coll. Que sais-je ?, P.U.F., Paris,

1973, p. 50.

³ - ibidem.

⁴ - ibidem.

⁵ - ibid., p. 49 .

⁶ - ibid., pp. 54-55 .

الم يجد بنو مرين المغرب بعدها " قد باد أهله ورجاله ، وفنى خيله وحماته وأبطاله ، ومات الكل بغزاة العقاب ، واستولى على بلادهم الخراب وعمرته السباع والذئاب... " (7) ، فأسرع المرينيون إليه ، لأنه لم يعد به من يصددهم عنه ، ولا من ينازعهم فيه (8) ؟ ، لاسيما وقد أعقب الهزيمة " الوباء العظيم الذي تحيف الناس إلا قليلا " (9) !

إلا أن هذه الظروف ، التي مكنت المرينيين من السلطة ، هي نفسها التي ساهمت في أفول نجمهم . إذ إن كثرة الأعباء وقلة مداخيل بيت المال ، نتيجة لتقلص عدد السكان ، جعلهم يدخلون في حروب غير مجددة ، لم تزد الأوضاع إلا إفلاسا . وسيتعري هذا الواقع أكثر مع نكبة أحد أعظم سلاطين هذه الأسرة ، وهو أبو الحسن المريني ، على إثر غرق أسطوله المكون من حوالي ستمائة قطعة ، وذلك قبالة ساحل بجاية سنة 750 هـ / 1349م ، وهلاك معظم كبار رجال الدولة وقوادها ، وحوالي أربعمائة من خيرة علمائها وفقهائها (10) ، ثم جرف الطاعون الأسود ، الذي ظهر في الفترة نفسها ، طائفة أخرى من الأئمة والعلماء (11) في مختلف أقطار المغرب ، عدا العامة وغيرهم .

وقد تلا كل ذلك فتن واضطرابات ازدادت حدة وتفاقما ، بعد مقتل السلطان أبي عنان سنة 1358م . وتعتبر فترة ما بعد نكبة أبي الحسن شبيهة بتلك التي أعقبت وفاة كل من السلطان السعدي أحمد المنصور سنة 1603م ، والسلطان العلوي المولى إسماعيل سنة 1727م . بل إن الأوضاع كانت في كل مرة أسوأ من السابق ، لاسيما من الناحية الديمغرافية .

وقد ترتب عن هذه الاضطرابات ، وعن تقلص عدد السكان ، نقص مهول في موارد الدولة ، في وقت تعاظمت فيه أعباؤها ، سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي ، لاسيما مع انكماش رقعة البلاد ، ففي بعض الفترات ، وظهر أطماع أجنبية فيها ، برتغالية وإسبانية وعثمانية ، فأصبح لزاما على المخزن

7 - ابن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . دار المنصور ، الرباط ، 1973 ، ص. 282 .

8 - المكان نفسه .

9 - أحمد الناصري : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . تحقيق : جعفر الناصري وخالد الناصري ، دار الكتاب ، الدر البيضاء ، 9 أجزاء ، 1956 .

10 - نفسه ، 3 : 171 .

11 - أحمد بن قنفذ القسنطيني : شرف الطالب . دمن كتاب : ألف سنة من الوفيات . تحقيق : محمد حجي ، ص. 81 .

إرغام الناجين من أفراد وكوادر قبائل على دفع حصص الهالكين من أسرها، والأخذ المنقرضة المنتمية إليها⁽¹²⁾، مما كان يؤدي إلى ارتفاع الأعباء الضريبية وإلى إفقار الرعية، إلى درجة أدت في كثير من الأحيان إلى الامتناع عن دفع الضرائب، بل وإلى شق عصا الطاعة على السلطة، الأمر الذي كان يثير استياء جهاز المخزن ويدفعه إلى تجهيز "حركات" باستمرار، ليس فقط من أجل استخلاص الكلف المخزنية، بل والانتقام من القبائل "المتردة"، بقتل زعمائها وإرهاق كاهل أتباعهم بمغارم ووظائف جديدة، لاسيما على يد بعض أفراد المخزن أو الوزراء الذين عرفوا بالحزم والجبروت، مثل الوزير محمد الوطاسي، الذي اشتهر "عند العامة بفاس بأبي علاقة وبالقديد، لكثرة سفكه الدماء".⁽¹³⁾ وفي الواقع، فإنه عرف بهذه السمة عدد من السلاطين وغيرهم⁽¹⁴⁾، حتى لقد كان الناس في بعض الفترات يستترون نهارا ويختفون عن "أعوان الظلم"⁽¹⁵⁾، بينما كان آخرون يتكرومون بارتداء ملابس بالية، حتى لا تظهر عليهم آثار النعمة فيغرمون فوق طاقتهم⁽¹⁶⁾.

والغريب في الأمر، أن المخزن لم يكن يتورع عن اقتفاء أثر رعاياه من تجار وغيرهم حتى وهم يؤدون فريضة الحج، وذلك للاطلاع على قيمة ثرواتهم،

12 - كانت عائلة ابن جلون بفاس، مثلا، تتكون من 50 كانون أو خيمة فرادية في القرن 16م، انقرضت منها 10 خيم في أواخر القرن بعده، وأصبح على الـ 40 خيمة الباقية أن تؤدي حصص الكوادر المنقرضة. راجع: محمد مزين: فاس وباديتها، مساهمة في تاريخ المغرب السعدي (1549-1637م). جزان، منشورات كلية الآداب بالرباط، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1986، 2: 488.

13 - أحمد ابن القاضي: جذوة الاقتباس في من حل من الأعلام بمدينة فاس. جزان، دار المنصور، الرباط، 1973 و 1974، 1: 357.

14 - انظر مثلا ما فعله عبد الله بن محمد الشيخ السعدي بأهل فاس حين سلط عليهم الشراقة، عند محمد الصغير انفراني: نزعة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي. ط. 2، مكتبة الطالب، الرباط، د. ت.، ص. 233. وانظر أيضا ما فعله السلطان أحمد الذهبي العلوي بأهل مكناس عند محمد بن الطيب القادري: حوليات نشر المثاني (قطعة من كتاب: نشر المثاني لأهل القون الحادي عشر والثاني في مكتبة البودليان بجامعة أكسفورد بانجلترا). نشر وتقسيم: نورمان سيكار، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1978، صص. 31-32 وما بعدهما.

15 - محمد العربي الفاسي: مراة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن. طبعة حجرية، فاس، 1324 هـ (1906-1907م) ص. 89.

16 - راجع: مجهول: تاريخ الدولة السعدية الدرعية التاكدردية. نشر: ج. كولان، الرباط، 1934، صص. 98 - 99.

وقد كانت مثل هذه الأمور تسند أحيانا لأقرب الناس إلى السلطان وأبعدهم عن "الشبهات" (17).

وقصارى القول إن الحرب ، على حد تعبير زيدان السعدي (18) ، تدفع إلى الإكثار من الأجناد ، وتضاعف الأجناد يؤدي إلى تضاعف العطاء ، وتضاعف العطاء إلى تضاعف الخراج ، وتضاعف الخراج إلى الإجحاف بالرعية ... أما الإجحاف بالرعية فيؤدي إلى إحجام الناس عن التكسب والفلح ، وبالتالي إلى تراجع الإنتاج ، فتقشي الفقر ، وانتشار اللصوصية ، واضطراب الأوضاع ، وخروج الناس عن الطاعة وسعيهم " للفتن طلبا للراحة " (19) ، فتكثر المجاعات والأوبئة ويكثر الموتان ، ويزداد بسبب ذلك تراجع عدد السكان ونقص في اليد العاملة ، حتى إنه تفشت ، أحيانا ، مجاعات خطيرة في بعض الجهات ، بالرغم من أن الموسم الفلاحي كان جيدا ، والإنتاج الزراعي كان وفيرا ، كما حدث في فاس وأحوازها سنة 1493م (20) .

إن هذه الحلقة المفرغة ، التي مر بها المغرب في تاريخه الحديث ، تعتبر نتيجة طبيعية للتقلص الحاصل في عدد سكانه ، وهو ما يمكن أن يلمس ، مثلا ، من خلال اضطرار السعديين إلى الاعتماد على جلب اليد العاملة من بلاد السودان ، للعمل في قطاع إنتاج السكر ، وحتى إذا كان الأمر علاقة بموقف القبائل من سياسة السعديين هاته ، فإن النتيجة تبقى واحدة في كل الأحوال .

ومجمل القول ، إن الحروب الداخلية ، وأعباء مواجهة الأخطار الخارجية ، أنهكت مكونات المجتمع كافة ، حاكمين ومحكومين ، فغلب الميل نحو الاستقلال عن

17 - ذكر النقادري أن خاتمة بنت بكار ، والددة السلطان عبد الله بن إسماعيل ، سافرت قصد الحج صحبة حفيدها سيدي محمد ، وكان ذلك سنة 1143هـ / 1730-31م ، " وكان من حج معها ذلك العام من بعض تجار أهل فاس ، فرأت من أموالهم وعابنت من أحوالهم ما بهر عقلها وأثار غيظها وأوتر نبها ... وفي آخر سنة أربع وأربعين ومائة وألف رجعت من حجها ووصلت لمكناسة ، وبعد قدومها على ولدها السلطان مولانا عبد الله أعلمته بما رأت وعابنت وسمعت بشهر ، أغرته بقبض تجار أهل فاس من المحررين وغيرهم وحرصته ، على أخذهم ونهبهم ، بكلام يوغر الصدر ويوتر السرور ، وبعث قائده عبد الرزاق بن علي ويشي الزموري نفاس وقبضهم في المال أجمعين وجعلهم في السجن وكلفهم بدفع المال فورا ... " الحوئيلت ، م. س. ، صص. 36 - 37 .

18 - النزهة . م. س. ، ص. 39 .

19 - الناصري : م. س. ، 6 : 43 .

20 - محمد مزين : م. س. ، 1 : 158 .

سلطة المخزن، إلى أن أصبحت البلاد في كثير من الأحيان " في غاية الاضطراب والانتكاس حتى طمع في ملكها كل من كانت توسوس له نفسه بذلك".⁽²¹⁾ وقد لا يكون هناك مثال أكثر وضوحا عن عمق الأزمة العامة، المتولدة عن النقص الحاصل في السكان، مما آلت إليه الأوضاع في عهد السلطان العلوي المستضيء بن إسماعيل، الذي افتقرت الدولة في أيامه " واحتاج إلى المال ليقطع عنه لسان العبيد، فأخذ في البحث عما في المخازن الإسماعيلية، التي لم يلتفت إليها الملوك قبله، فوقع على خزين من الحديد فاستخرجه وباعه، ووقع على الخزين الكبير، وفيه آلاف من قناطر الكبريت، فباعها أيضا، ووجد شيئا كثيرا من ملح البارود والشب والبقام وغير ذلك مما كان يجلب إلى الحضرة من غنائم أجناس الفرنج فباع ذلك كله، ثم اقتلع شراجب القبة الشطرنجية، وكانت من نحاس مذهب، واقتلع الدراييز التي عن يمينها وشمالها من الحديد المنتخب من باب الرخام إلى قصر المولى يوسف ودفعها لأهل الذمة والزمهم أداء ثمنها فأجحف بهم، ثم أنزل المدافع النحاسية التي كانت بأبراج الحضرة [مكناس] فكسرها وضربها فلوسا، فما أغنى ذلك شيئا. وقتل في هذه المدة نيفا وثمانين رجلا من عرب بني حسن، وسلط العذاب على أهل فاس ليغرموا المال، فغرموا ما قدروا عليه، ثم أمر بالقبض على تجار أهل فاس ليشتروا أصول مساجينهم، فعذبوا إلى أن أدوا بعض المال، وعجزوا، وأفنتي العلماء أن هذا البيع في الأصول صحيح، تقديما لخلاص الأنفس على الأموال".⁽²²⁾

تلكم بعض من الأمثلة عن دور الحروب و" الحركات"، واستبداد الحكام في احتدام الأزمة في تاريخ المغرب الحديث، وما نجم عنها من سقوط هيبة الدولة، وإنهاك قوى المجتمع. أما عن دور تلك الحروب باعتبارها أداة للإبادة والتفتيل والحد من تكاثر السكان، فرغم أن الدراسات لا تزال شحيحة إلى حد كبير في هذا الباب، إلا أننا نعتقد أن انعكاسات تلك الحروب على المستوى الديمغرافي كانت خطيرة جدا، لاسيما وأنها كانت كثيرة⁽²³⁾، ويمكن إرجاع ذلك لعدة عوامل، منها:

²¹ - الناصري : م. س. ، 4 : 120 .

²² - نفسه ، 7 : 148 .

²³ - اقترحت على طالبين - في السنة الجامعية 1993-94 - إنجاز بحثين عن المعارك والحروب في تاريخ مغرب القرن 17م، فتناول أحدهما الفترة بين 1603 و 1651م (48 سنة) وتناول زميله الفترة بين 1650 و 1705م (55 سنة) ، ومن خلال مصادر محدودة فقط، أحصى في الفترة الأولى حوالي 91 معركة، منها 20 فقط توفرت حولها أرقام عن عدد القتلى من المغاربة، وقد بلغت 31.373 قتيلًا، أي بمعدل يزيد عن 1.518 قتيل في كل معركة،

- كثرة القوى السياسية والعسكرية المحلية المتنازعة في الفترات المضطربة خاصة، إلى جانب هجومات القبائل على بعضها البعض ، وغاراتها على التجمعات السكنية، مدنية أو قروية، وانتشار ظاهرة اللصوصية وقطاع الطرق ، إضافة إلى كثرة المحاولات اليائسة للمخزن من أجل تهدئة الأوضاع بتعبئة حركات كثيرة ، لكنها قلما كانت تنجح في مهماتها، لاسيما أمام القبائل الجبلية والناحية .

- ازدياد حدة التوتر وكثرة المعارك ، بفعل عامل التدخل الأجنبي في الحياة السياسية المغربية، وتآليب القبائل ضد بعضها البعض ، مما جعل المغاربة في تعبئة دائمة، واستنفار مستمر لملاقاة العدو أو مباغتته ، ولو داخل الثغور المحتلة، حتى إن من الفقهاء من كان يدرس في فصلي الشتاء والربيع ويرابط بالثغور في فصلي الصيف والخريف، كما كان يفعل الشيخ عبد الله الوريكلي⁽²⁴⁾.

- استخدام الأسلحة النارية، منذ القرن 16م خاصة ، وذلك بشكل لم يعهد من قبل، مما كان ينتج عنه، من غير شك ، سقوط عدة ضحايا ، في كثير من الأحيان، رغم أن هناك من يشكك في ذلك، بحجة افتقار أسلحة تلك الفترة إلى إمكانية التسديد المتقن⁽²⁵⁾ ، أو من يعترض أصلا عن أن حروب ذلك العصر، يمكن أن تكون عاملا من عوامل تأخير النمو السكاني⁽²⁶⁾ .

وأحصي في الفترة الثانية حوالي 63 معركة ، 30 منها فقط وردت أرقام بشأن عدد القتلى فيها ، وقد بلغت 77.054 قتيلا ، أي بمعدل يزيد عن 2.568 قتيل في كل معركة . وتتراوح الأرقام المصرح بها - تقديرا في الغالب - بين " لا أحد " و " اثني عشر ألفا " ، ولم يتم تقديم أي رقم في معظم الحالات ، أو تم التعبير عن عدد القتلى بعبارات ، مثل : " ما لا يحصى " ، و " هلك خلق كثير " ، و " هلك الكثير " ، و " هلك نصف الجيش " ...

²⁴ - محمد ابن عسكر : دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر . تحقيق : محمد حجي ، منشورات دار المغرب ، الرباط ، 1976 ، ص. 31 .

²⁵ - جرمان عياش : " دراسات في تاريخ المغرب : المجتمع الريفي والسلطة المغربية " . تعريب: محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسamani خلوق ، الجمعية المغربية للناشرين المتحدين، الرباط ، 1986 ، ص. 213 .

²⁶ - أحمد التوفيق : المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر : اينولتان (1830-1912) . منشورات كلية الآداب بالرباط ، ط. 2 ، 1983 ، ص. 192 . والواقع أن الأسلحة النارية ، من بنادق ومدفعية ، لم تكن فعلا دقيقة في إصابة أهدافها دائما ، كما أن القذف بالكور كان يتم بعشوائية في بعض الأحيان ، كما يفهم ذلك من بعض الأمثلة ، منها :

أن السلطان عبد الله بن إسماعيل العلوي قصد فاسا مرة " فنزل عليها وأدار بها الجنود ... ورمأها بالكور والبنب بالالة المعروفة في الوقت بالانفاض والمهاريز ، حتى كان يرميها في كل يوم بنحو السبعين من الكور وبما ينيف عن العشرة من البنب ، ومثل ذلك في الليل ... فلد

لكن وكيفما كان الحال ، فإن هناك نصوصا كثيرة تتحدث عن حروب دامية ، كان عدد ضحاياها أحيانا بالمئات ، وأحيانا بالآلاف ، ناهيك عن عدد الجرحى والمعطوبين ... فقد أحصيت ، مثلا ، ما ترتب من خسائر بشرية في صفوف المغاربة ، وعدد من سقط منهم في الأسر ، وعدد رؤوس المواشي المسلوقة في معارك خاضوها ضد برتغاليي الثغور المحتلة ، وذلك في ظرف لا يتجاوز عقدين من الزمن (1501م - 1521م) ، حوالي 9.386 قتيلًا ، و 8.517 أسيرا ، و 255.906 من رؤوس الأغنام والأبقار والإبل والخيول والبغال والحمير...⁽²⁷⁾ ، هذا مع العلم أن هذه الأرقام مأخوذة من مصدر واحد فقط ، ولا تهم إلا بعضا من تلك المعارك والغارات ، وهي على أية حال ليست كثيرة ، كما أنها لا تتحدث لا عن حجم الخسائر في صفوف المغاربة المتحالفين مع المحتلين ، ولا عن عدد المعطوبين .

يتضرر بذلك أحد من أهل فاس ، المقاتلين ولا غيرهم ... سوى ذات مرة سقطت بنية منها يوم الجمعة بمسجد إدريس ... والإمام يخطب على المنبر ، والمسجد غاص بالناس ... فلم يتضرر بها سوى رجل واحد مات بالأقدام من شدة الزحام عند فرار الناس من المسجد ... وذلك بتاريخ 1141 هـ / 1728-29م . الحوليات . م . س . . ص . 34 .

وسجل أحد الأوربيين بشأن حصار السلطان المستضيء لمدينة تطوان ، في عام 1747م ، فذكر أن المدينة لم تخسر من جراء تعرضها ثلاث مرات لرشق المدفعية إلا أربعة أفراد . ولم تفقد حاميتها خارج الأسوار إلا 22 فردا من مجموع 600 . رغم أنها خاضت ست معارك .
Nicolas MICHEL, *Les calamités démographiques et le Maroc (1700-1822) à travers les sources françaises* . Maîtrise d'Histoire, Paris I, Centre de recherches africaines, 1982, - 83, p. 20.

ذكره : محمد الأمين البزاز : تاريخ الأوبئة و المجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ط . 1 . منشورات كلية الآداب بالرباط . مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1992 ، ص . 43 .

وخاض باشا الرباط بو عزي القسطلي معركة ، بتاريخ 1790/11/24م . قرب المدينة ضد عرب الصباح ، دامت ست ساعات ، وشاركت فيها آلاف الفرسان . ومع ذلك لم تسفر إلا عن 50 قتيلًا . البزاز : المكان نفسه .
لكننا نعتقد مع ذلك أن لكل حال استثناء .

27 - انظر : محمد استيتو : الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن 16م . رسالة لنيل د . ع . في التاريخ ، كلية الآداب ، فاس ظهر المهرز . 1988 . ص . 307 . وقد استخرجت هذه الأرقام من : Damiao DE Góis: *Les Portugais au Maroc de 1495 à 1521*. Traduit par R. RICARD, Rabat, 1937

وجاء في مصدر آخر إن عمليات حصار المغاربة والسعديين لحصن أكادير إلى غاية سقوطه سنة 1541م ، كلفت 7.800 قتيلًا وعددا من رعايا الملك والقواد والفرسان ، وأناسا آخرين من مختلف الشرائح ⁽²⁸⁾ .

وذكر الوزان ⁽²⁹⁾ من جهته ، إنه على إثر الحملة التي أرسلها السلطان الوطاسي لتأديب أمير دبدو محمد بن أحمد سنة 904 هـ / 1498-99م ، دقت أعناق 1.000 رجل من فرسان السلطان ، سقطوا من فوق الصخور المطلة على المدينة ، وفاق عدد القتلى 3.000 قتيل آخرين .

وبلغ عدد قتلى المواجهات بين أحمد المنصور السعدي ومحمد المتوكل وحليفه ابن ويسعدن في قطر سوس 4.000 ⁽³⁰⁾ من أنصار المتوكل وحليفه ، بينما أغفل ذكر الخسائر في جيش المنصور ، وكان يناهز الستين ألفا ⁽³¹⁾ . وقدرت جملة خسائر المتوكل ، طوال حولين كاملين ، في حربه مع المنصور ، " فكانت جملة المفقود من العدد الذي أثبتوا به في دواوين الخراج ستة عشر ألفا " ⁽³²⁾ .

وبعد وفاة المنصور عام 1603م ، ذكر القادري ⁽³³⁾ أن معركة واحدة دارت بين عبد الله بن محمد الشيخ وعمه زيدان حول مراكش سنة 1015 هـ / 1606-07م ، كلفت الأول 7.000 قتيل ، ولم يحدد عدد الخسائر في صفوف الفريق الآخر .

وفي سنة 1020 هـ - 1611م ، وقعت مقتلة المترب بين أهل فاس فمات 700 رجل في يوم واحد ، وجلهم هلك بالعطش ⁽³⁴⁾ .

وتعددت المعارك بعد وفاة السلطان إسماعيل العلوي ، وكثرت الحروب والفتن بتعدد أطراف النزاع ، فكلفت معركة دارت بين بعض القبائل الشمالية 4.000

²⁸ - *Chronique de Santa Cruz du Cap de Gué (Agadir) : Traduit par Pierre de* - CENIVAL: Paris, 1934, p. 125 .

²⁹ - الحسن بن محمد الوزان : وصف إفريقيا . ترجمة : محمد حجي ومحمد الأخضر ، ط.1 ، ج.1 ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، الرباط ، 1980 و 1882 ، 1 : 274-275 .

³⁰ - عبد العزيز الفشتالي : مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا . تحقيق : عبد الكريم كريم ، منشورات وزارة الأوقاف ، الرباط ، 1973 ، صص. 32-33 .

³¹ - المكان نفسه .

³² - نفسه ، صص. 33-34 .

³³ - محمد بن الطيب القادري : نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني . 4 أجزاء ، تحقيق : محمد حجي وأحمد التوفيق ، الرباط ، 1977 و 1982 و 1986 ، 1 : 107 .

³⁴ - نفسه ، 1 : 160 .

شخص⁽³⁵⁾ . واضطر السلطان عبد الله العلوي إلى استخدام القوة ضد جيش عبيد البخاري ، فقتل منهم 10.000⁽³⁶⁾ ...

والحاصل إن هذه ليست إلا أمثلة قليلة من جملة تكاد لا تحصى من أحداث المعارك والحروب ، والفتن وعمليات الإبادة والتقتيل الجماعي ، التي شهدتها بعض فترات ذاك العصر ، حتى " ماتت خلائق لا يحصون ، وكاد أن يهلك جميع من في المغرب من خاص وعام ."⁽³⁷⁾ وأصبحت المعارك مألوفة ، وعمليات القتل من المشاهد اليومية ، إلى حد أنها كانت تثير سخرية الأطفال وتسليهم⁽³⁸⁾ .

وكثيرا ما كانت المعارك وضراوة الاقتتال تصل أحيانا إلى درجة من الهستيريا ، فلم يكن يسلم منها لا النساء ولا الأطفال ، ومن ذلك ، مثلا ، ما قام به الشراقة - لما استتصر بهم عبد الله بن الشيخ عام 1016 - 1020هـ - من اقتحام لمنازل أهل فاس والاعتداء على نساها ، كما سجلت حالات لقتل الأطفال⁽³⁹⁾ . وورد في الاستقصا⁽⁴⁰⁾ أن الأمير زيدان العلوي لما استولى على تارودنت في صفر 1116 هـ / 1704م وقبض فيها على أخيه محمد العالم ، " قتل جميع من بها ، حتى النساء والأطفال ."

وتذكر بعض المصادر أنه في عام 1140هـ / 1727-28م أطلق السلطان العلوي أحمد الذهبي " السبيل في المدينة [مكناس] وقاتل الناس على أنفسهم وأموالهم وحريمهم وأعراضهم ، وبذلوا مجهودهم في ذلك ، وبعد ذلك غلبوا ، فانتهبت لهم الأموال ، وفضحت الحرائم ، واقتضت الأبيكار ..."⁽⁴¹⁾

صحيح إن بعض الشهادات لا تخلو من مبالغة أو غلو حين تقديرها لضحايا تلك الحروب والمعارك ، إلا أن الحرب تبقى ، في كل الأحوال ، حربا ، وظاهرة لا يشك في دورها كعامل من عوامل تراجع النمو السكاني ، نظرا لكثرة ما دار على أرض المغرب ، طوال تاريخه ، من معارك ، كان بعضها داميا جدا ، نتيجة لما كان يترتب عنها من كثرة القتلى والمعطوبين ، والمفقودين والمشردين ، والأيتام والأرامل ، والفقراء ... ألا تخاض المعارك بنية القتل ؟

35 - محمد بن عبد السلام الضعيف : تاريخ الضعيف (أو تاريخ الدولة السعيدة) . تحقيق : أحمد العمري ، دار المآثورات ، الرباط ، 1986 ، ص. 106 .

36 - الناصري : م. س. ، 7 : 136 .

37 - نشر المثاني . م. س. ، 3 : 321 .

38 - الحوليات . م. س. ، ص. 34 .

39 - النزهة . م. س. ، ص. 233-234 .

40 - الناصري : م. س. ، 7 : 91 .

41 - الحوليات . م. س. ، صص. 31-32 .

ومن جهة أخرى كثيرا ما كان يترتب عن هذه المعارك والتضييق على القبائل ، من خلال نهج " سياسة الأرض المحروقة " ، وإذلال المنهزمين ، بفرض مغارم ثقيلة عليهم ، فرار الناس من مواطنهم أو عزوفهم عن الفلح والكسب ، ومن ثم تنهياً الظروف لتفشي المجاعات والأوبئة ، التي كان لها هي الأخرى انعكاسات سلبية خطيرة على الأوضاع الديمغرافية في المغرب الحديث .

2 - كثرة المجاعات والأوبئة

الواقع أن المجاعات والأوبئة لم تكن تحدث فقط نتيجة للحروب ولاضطراب الاستقرار السياسي والاجتماعي ، أو لتدهور الأوضاع الاقتصادية وتدمير وسائل الإنتاج ... ، وإنما كانت تنفشي كذلك نتيجة لظروف طبيعية وبشرية أخرى متعددة⁽⁴²⁾ . وقد كان لهاتين الظاهرتين أسوأ النتائج على المستوى السكاني والديمغرافي ، لاسيما وأنها كثيرا ما كانتا تتلازمان أو تتولدان عن بعضهما البعض وتستغرقان أحيانا مددا لم تكن قصيرة .

ولحسن الحظ ، فقد أصبح ممكنا الوقوف على كثير من مخلفات هاتين الآفتين وعلى انعكاساتهما على الأوضاع العامة لتاريخ المغرب الحديث ، ولاسيما على نتائجهما الديمغرافية ، وذلك بفضل بعض الدراسات المتكاملة ، ولو أنها قليلة ، منها : مقال الأستاذين برنار روزنبرجي B. ROSENBERGER وحميد التريكي H. TRIKI حول " المجاعات والأوبئة في المغرب خلال القرنين 16 و 17م " ⁽⁴³⁾ ، ورسالتنا حول " الكوارث الطبيعية في تاريخ مغرب القرن 16م " ⁽⁴⁴⁾ ، وأطروحة الأستاذ محمد الأمين البزاز حول " تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر " ⁽⁴⁵⁾ . وتغنيينا هذه الدراسات عن الوقوف مطولا عند ظاهرتي المجاعات والأوبئة وعن كثرة الاستدلال ، بالنصوص الكثيرة ، على فواجعهما ونتائجهما الديمغرافية .

ويمكن القول إن انعكاسات هذا النوع من الظواهر على الأحوال الديمغرافية ، بالنسبة لتاريخ المغرب ، بدا أكثر وضوحا منذ انتشار الطاعون الأسود في منتصف القرن 14 م / 8 هـ . صحيح إن النصوص لا تقدم معلومات شافية عن الخسائر

42 - انظر جملة من أسبابها ونتائجها في الدراسات المشار إليها في الإحالات الثلاث التالية مباشرة .

43 - " Famines et épidémies au Maroc aux XVI^e et XVII^e siècles " . Hespéris-Tamuda ,

vol. XIV, fasc. un., 1973, et vol. XV, fasc. un., 1974.

44 - م . س .

45 - م . س .

البشرية ، التي تكبدها المغرب بسببه، إلا أن شهادات متفرقة تلخص هول الفاجعة، وأهمها ما لخصه ابن خلدون بقوله : " ... هذا ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجبل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاهها ، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وقل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها وانتقص عمران الأرض بانتفاص البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السيل والمعالم وقلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن وكأني بالمشرق قد نزل به مثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبه ومقدار عمرانه وكأنما نادى لسان الكون في العالم بالخموم والانقباض فبادر بالإجابة ... وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحول العالم بأسره وكأنه خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث..."⁽⁴⁶⁾

إن ما يستنتج من هذا النص هو أن ابن خلدون قاس ما أصاب الأمم الأخرى، وما حل بها من خراب ونقص في البشر، بما حل ببلاد المغرب عامة، والتي عاين مدى ما لحق بها من دمار عمراني وخسائر بشرية فادحة، لذلك حق لروزنبرجي أن يعتقد أن تلك الفاجعة لم تكن أبدا أقل خطورة عما كان عليه الحال في أوربا⁽⁴⁷⁾ . ومعلوم أن الخسائر ، من جراء هذا الطاعون، قدرت هناك بحوالي 24.000.000 من الضحايا ، وهو ما يعادل ما بين ربع وثالث مجموع السكان ، وذلك خلال أربع سنوات فقط (1348 - 1352)⁽⁴⁸⁾ .

وعرف المغرب ، منذ ذلك العهد وطيلة العصر الحديث ، سنوات مجاعلت وأوبئة كثيرة وخطيرة، كانت تؤدي في معظم الأحيان بحياة نسبة مهمة من السكان، تتراوح في بعض المدن والحواضر بين 10 % و 30 %⁽⁴⁹⁾ . وتبدو المجاعات أحيانا أكثر تدميرا وفناء، لاسيما لما كانت تصيب التجمعات النائية أو المعزولة ، والتي كان يصعب نجدتها، مما كان يؤدي إلى هلاك معظم سكانها⁽⁵⁰⁾ .

تذهب بعض الدراسات إلى القول إن هلاك 10 % من السكان، أو أكثر من ذلك بقليل ، يمكن من الناحية النظرية أن تختفي آثاره خلال جيل واحد ، بحيث

46 - عبد الرحمان ابن خلدون : مقدمة كتاب العبر . دار البيان ، د.ت. ، صص . 32-33 .

47 - B. ROSENBERGER: "Calamité, sécurité et pouvoir au Maroc aux XVI^e-XVII^e siècles". in Peuples méditerranéens, n° 27-28, avril- septembre. 1984, p. 248.

48 - H. MOLLARET: Préface du livre de Daniel DEFOE; Journal de l'Année de la peste . traduction de Francis LEDOUX, Gallimard, 1982, p. 8 .

49 - ROSENBERGER: Calamité..., op. cit., p. 250 .

50 - ibidem.

يمكن تعويض تلك الخسائر البشرية ، لكن شريطة ألا تحدث كوارث أو فواجع جديدة وفي فترات متقاربة ، وإلا كانت العواقب وخيمة ، لاسيما على الفئات الشابة⁽⁵¹⁾ . فهل كانت المجاعات ، والأوبئة خاصة ، تمهل ساكنة المغرب حتى تتجدد كلما أصيبت بمكروه من هذا النوع ؟

يجيب الوزان عن ذلك بالنفي ، إذ يقول : " ويظهر الوباء في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات ، أو خمس عشرة سنة ، أو خمس وعشرين سنة ، وعندما يأتي يذهب بالعديد من الناس ، لأنه لا يهتم به أحد ، ولا يستعمل أي دواء باستثناء التمسح بالتراب الأرميني حول دمل الطاعون ."⁽⁵²⁾

إذن فالوباء لا يظهر في أوقات متقاربة وحسب ، بل ويتسبب في خسائر فادحة ، لاسيما مع جهل السكان بطرق معالجته والوقاية منه ، حتى إنه أصبح " مستوطنا " فيهم ، أو بالأحرى أصبح مألوفا بينهم ، لدرجة " أنه لا يهتم به أحد ولا يستعمل أي دواء ... "

وعلى العموم ، فإن الدراسات التي أنجزت حول الأوبئة والمجاعات تؤكد إلى حد كبير صدق هذه الملاحظات . فقد تم تسجيل حوالي إحدى عشرة سنة مجاعة أو وباء في القرن 16م⁽⁵³⁾ ، بل وأكثر من ذلك⁽⁵⁴⁾ ، وحوالي سبع وعشرين سنة⁽⁵⁵⁾ ، على الأقل⁽⁵⁶⁾ في القرن الموالي ، وحوالي سبع عشرة سنة ما بين جفاف وقحط ومجاعة ووباء في القرن 18م⁽⁵⁷⁾ ، وحوالي ثمان وعشرين سنة في القرن 19م⁽⁵⁸⁾ ، وهو ما يكاد يمثل مدة حوالي قرن من هذه الظواهر المفجعة في ظرف أربعة قرون ، ولحسن الحظ أنها لم تكن عامة في كل مرة .

⁵¹ - *ibidem* .

⁵² - الوزان : م. س. ، 1 : 68 . واستعمل المغاربة أيضا الترياق دواء ونوعا من اشربة . راجع : النزهة . م. س. ، صص. 184-185 و ص. 188 .

⁵³ - ROSENBERGER et TRIKI, *op. cit.*, 1974, p. 68 .

⁵⁴ - عرف المغرب في الواقع كوارث طبيعية من جفاف أو قحط أو جراد أو مجاعات وأوبئة . جزنيا أو كليا ، ضعف ذلك بكثير . انظر رسالتنا . م. س. ، صص. 89-90 و 463-464 .

⁵⁵ - ROSENBERGER et TRIKI, *op. cit.*, 1974, p. 68 .

⁵⁶ - راجع رسالتنا ، م. س. ، صص. 446-469 (حوالي 30 عاما) .

⁵⁷ - انظر : البزاز : م. س. ، صص. 35-99 . ومحمد استيتو : م. س. ، صص. 469-

470 .

⁵⁸ - راجع : البزاز : م. س. ، صص. 85-343 وما بعدها ، ومحمد استيتو : م. س. ، ص.

470 .

والواقع أن ثالث الحروب والمجاعات والأوبئة أدى إلى حدوث أزمات خطيرة على مختلف المستويات ، فعلى المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي طالت الفترات الأكثر اضطرابا من منتصف القرن 14م إلى منتصف القرن 16م ، مع انفراد السعديين بحكم البلاد ، ومن وفاة أحمد المنصور السعدي سنة 1603م إلى عدة سنوات من حكم السلطان العلوي المولى إسماعيل سنة 1672م ، ثم من وفاة هذا الأخير سنة 1727م إلى حوالي سنة 1757م ، بينما شهد القرن 19م احتكاكا مع الأوربيين ، تبين من خلاله أن المغرب كان قد استنفذ كل قواه وإمكاناته ، منذ مدة ليست بالقصيرة ، كما تدل على ذلك الهزائم العسكرية أمام الفرنسيين في معركة إسلي ، وأمام الإسبان في معركة تطوان .

وعلى المستوى الديمغرافي ، فإن أهم الأزمات هي تلك التي ضربت البلاد خلال سنوات : 1519-1524م و 1557-1558م و 1579م (987 هـ) المعروف بـ " عام البقول " أو " عام كحيكحة " ، والأزمة المتعددة الأوجه ، التي دامت تقريبا من حوالي سنة 1596م إلى 1608-1610م⁽⁵⁹⁾ ، ثم سنوات : 1626-1631م و 1661-1664م و 1678-1684م⁽⁶⁰⁾ ، فسنوات : 1721-1724م و 1737-1738م و 1779-1782م و 1798-1800م⁽⁶¹⁾ ، ثم سنوات : 1817-1820م و 1825-1826م و 1834-1835م و 1847-1851م و 1867-1869م و 1878-1883م و 1890-1896م⁽⁶²⁾ ...

لقد كانت هذه الأزمات إذن كثيرة ، وكانت تستغرق أحيانا أكثر من سنتين متتاليتين ، وقلما بلغت فترة الاستراحة بين أزمة وأخرى عقدا أو عقدين من الزمن ، مما لم يكن يسمح بفترات كافية لتجدد السكان ، والتقاط الأنفاس ، وبلوغ معدل النمو إلى مستوى عاد يضمن إعادة التوازن المفقود للنمو الديمغرافي والبنيات السكانية المخلخة .

وجدير بالذكر إن ما كان يترتب عن هذه الأزمات من استنزاف للطاقة البشرية ، لاسيما إذا كان سببها مجاعة ، لم يكن يظهر فقط في كثرة أعداد الهلكى ، والجوع ، والأيتام والأيتامى ، والمشردين ومنخوري القوى ، الذين لا يقوون على الكسب في زمن صعب ... وإنما كان من مظاهرها أيضا الاندفاع نحو الهجرة إلى الخارج ، أملا في إثباع الغريزة والتمسك بالحياة ، وبذلك اكتملت أنواع الهجرة "

59 - عن هذه السلسلة من الأزمات واثارها ، انظر رسالتنا . م . ن . ، صص. 89-102 والفصول اللاحقة . وكذلك : "ROSENBERGER et TRIKI; op. cit."

60 - *ibidem* .

61 - عن طبيعة هذه الأزمات ، انظر : البزاز : م . س . ، صص. 35-99 .

62 - نفسه . صص. 99 - 343 ..

طوعية " وإجبارية . فماذا عن هذه الظاهرة التي لا يستهان بانعكاساتها على الوضع الديمغرافي ؟

3 - الهجرة الخارجية

شكلت الهجرات الخارجية ، " الطوعية " أو القسرية ، نحو البلاد والدول المجاورة خاصة ، وبصفة جماعية أحيانا ، عاملا آخر من العوامل التي كانت تزيد من استفحال المشكلة الديمغرافية واستنزاف الطاقة البشرية ، وعلى سبيل المثال فإن المناطق الواقعة ما بين جنوب أبي رقراق في الشمال وأحواز مراكش في الجنوب - والتي كانت معروفة في العصور الوسطى بكثرة سكانها من البرغواطيين حتى إنهم تمكنوا بفضل كثرة أعدادهم من الوقوف في وجه العديد من الحكام على مدى قرون - أصبح وجهها الإثني والديمغرافي ، في القرن 16م وفي ما بعده من القرون ، مختلفا كثيرا ، كما أشرنا إلى ذلك في بعض المناسبات . وذكر الوزان في هذا السياق أن عرب نواحي مراكش ودكالة كانوا " مدة من الزمن محررين من الكلف المخزنية إلى أن احتل البرتغاليون آسفي [914هـ / 1508م] وأزمور [919هـ / 1513م] فثارت الفتن بين القبائل وتفرقوا حزبين ، دمر ملك فاس [أبو عبد الله البرتغالي] أحدهما ، وقضى ملك البرتغال [إمانويل الأول] على الحزب الآخر ، كما نالت المجاعة السائدة في إفريقيا تلك السنة [1521م] منهم كثيرا ، إلى أن هاجر العرب المساكين عن طوعية إلى البرتغال يعرضون أنفسهم لمن يعولهم ، حتى لم يبق منهم أحد بدكالة ".⁽⁶³⁾

قد يرى البعض أن هذا النص يحمل نوعا من المبالغة ، إلا أن هناك نصوصا أخرى كثيرة تتحدث عن الظاهرة ذاتها بشيء من التفصيل ، ومنها شهادة برناردو رودريغش Bernardo RODRIGUES ، التي ذكر فيها أن المغاربة كانوا يبيعون بعضهم بعضا ، يبيعون أبناءهم وأخواتهم مقابل أثمان زهيدة للغاية ، ومنهم من كان يعرض نفسه للبيع . وقد كان الإقبال شديدا ، من قبل الإيبيريين بصفة خاصة ، على الشبان والشابات الجميلات في مقتبل العمر ، أما الفئات الأخرى من الرجال والنساء فكان الاهتمام بها محدودا للغاية ، فكان العرض أكثر من الطلب⁽⁶⁴⁾ . وقدّر بعض الباحثين عدد المغاربة الذين تم تهجيرهم أو هاجروا ، بسبب تلك المجاعة ، بما يقرب من مائة ألف فرد⁽⁶⁵⁾ ، معظمهم من الفئات الشابة القادرة على الإنتاج والإنجاب .

63 - الوزان : م . س . ، 1 : 51 .

64 - ROSENBERGER et TRIKI; op. cit. 1974, pp. 93-95 .

65 - راجع رسالتنا ، د . س . ، صص . 179-174 .

إن هذه الظاهرة لم تكن معزولة ولا فريدة من نوعها في تاريخ المغرب ، رغم أن الإشارات ليست كثيرة في شأنها . فقد ذكر البادسي أنه في القرن 7هـ / 13م حلت بشمال المغرب خاصة مجاعة شديدة ، حتى " كان بعض الناس يسلمون أنفسهم للنصارى ليشبعوا عندهم الطعام " .⁽⁶⁶⁾

وتكررت هذه الظاهرة بعد وفاة المنصور السعدي سواء على الساحل المتوسطي أو الأطلنتي . فقد أورد عيسى السعيد البطوني أن السكان من القبائل المجاورة لميليلة ابتلوا بمسغبة عظيمة في عام 1027هـ / 1617-18م " حتى باعوا أبناءهم للنصارى فضلا عن غيرهم " .⁽⁶⁷⁾ ويفهم هذا كذلك مما جاء في الرسالة التي وجهها يحيى الحاحي إلى زيدان بن أحمد المنصور (ت. 1037هـ / 1627-28م) والتي ورد فيها : " ... فما راعني إلا ... من مأسور ومقيد ومطلوب بمال ومطروود عن بلد وأخبار آخر ترد علينا من جهة السواحل أن الناس تباع فيها للعدو - دمره الله - ولم تر من اهتبل بذلك ممن قلدتموه أمور الثغور ... " .⁽⁶⁸⁾

كان هذا بعضا مما يتعلق بالهجرة " الطوعية " ، أما ما يتعلق بالهجرة القسرية أو الإجبارية ، بسبب الأسر خاصة ، نتيجة للمعارك والغارات والكمائن وغيرها ، فقد كان ذلك من الأمور اليومية والمألوفة تقريبا⁽⁶⁹⁾ .

و الواقع أن الهجرة بصفة عامة ، كانت منظمة في إطار تجارة الرقيق ، التي ازدهرت باستمرار مع الكشوفات الجغرافية ومع توسع نفوذ الاحتلال البرتغالي في البلاد ، انطلاقا من الثغور المحتلة ودور هذا الاحتلال في تزويد الوطن الأم ومستعمراته باليد العاملة والجنود لتثبيت دعائم الاستيطان في البلاد المستكشفة كالجزر الأطلنتية . لهذا ليس غريبا أن تكون الأغلبية من العبيد في جزر الكناري في القرن 16م من المغاربة⁽⁷⁰⁾ .

⁶⁶ - عبد الحق البادسي : المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف . تحقيق : سعيد أعراب . المطبعة الملكية . الرباط . 1982 . ص. 61 .

⁶⁷ - عيسى بن محمد أنبطوني السعيد الريفي (ت. بعد 1040هـ / 1631م) : مطلب الفوز والفلاح في آداب طريق أهل الفضل والصلاح . مخطوط ، ج. 2 ، ورقة 452-453 . (نسخة توجد لدى الأستاذ مصطفى الغديري)

⁶⁸ - النزهة . م. س. . ص. 214 .

⁶⁹ - راجع الإحالة رقم 26 .

⁷⁰ - M. ALARRERO Rodriguez: La esclavitud en Tenerife a raíz de la conquista. La Languna. 1956, p. 190. cité par ROSENBERGER et TRIKI: op. cit., 1973, p. 150 .

كما كان عدد كبير من المغاربة أيضا في شبه الجزيرة الإيبيرية ، وكان هذا العدد يرتفع كلما حلت بالمغرب أزمة حادة أو كارثة خطيرة كالمجاعات ، مثلما حدث خلال أزمة 1521م ، حيث تم نقل حوالي ستين ألفا من العبيد المغاربة إلى إسبانيا وإلى الأندلس خاصة ، حتى إنهم لكثرتهم فيها لم يكونوا يساوون شيئا تقريبا⁽⁷¹⁾ .

أما في لشبونة وضواحيها فقد كان معظم هؤلاء عرضة للموت بسبب البؤس والجوع ، وذلك نظرا لأنه لم يكن هناك من يرغب فيهم بسبب تفشي المجاعة في تلك البلاد أيضا⁽⁷²⁾ .

ويظهر أن وجود المغاربة - أحرارا أم عبيدا - لم يكن يقتصر على البلاد القريبة وحدها ، بل تجاوزه إلى بلاد أوروبية أخرى كانت تعتبر - آنذاك - بعيدة ، مثل أيرلندا⁽⁷³⁾ .

وقصارى القول إن الهجرة الخارجية ، مهما تكن دوافعها ، تعتبر هي الأخرى من عوامل استنزاف الطاقة البشرية وتقليص عدد السكان . صحيح إن المغرب استقبل من جهته أفواجا مهمة من المهاجرين الأندلسيين بصفة خاصة ، وذلك منذ سقوط غرناطة في سنة 1492م ، على الأقل ، وصحيح أيضا إن هؤلاء المهاجرين ملأوا بعض الفراغ الذي كانت البلاد تعاني منه من الناحية البشرية ، لكن يظهر أن عددا كبيرا من الأندلسيين اضطر إلى استئناف رحلاته إلى دول إسلامية أخرى ، واضطر البعض إلى العودة إلى الوطن والتحول إلى النصرانية على العيش في بلاد لا تسمح ظروفها القاسية بالتكيف مع واقع جديد يصعب فيه ضمان الأمن والاستقرار للرعايا المحليين فبالأحرى للضيوف . ومن الأمثلة على ذلك ، أنه وفد عدد من المهاجرين اليهود على العاصمة فاس في أواخر سنة 1492م ، ولكنهم منعوا من دخول المدينة بسبب أمراض كانت متفشية فيهم⁽⁷⁴⁾ ،

⁷¹ - *ibid.*, 1973, p. 134.

⁷² - *DE GOIS, op. cit.*, p. 228.

⁷³ - بدأت أعداد كبيرة من المهاجرين الأفارقة تتدفق على الجزر البريطانية - وبما في ذلك العاصمة لندن - منذ العصور الحديثة ومن بلاد المغرب خاصة ، إلى درجة أن هذه الظاهرة أصبحت معضلة تقلق السلطات المحلية ، فأصدرت الملكة إليزابيث في سنة 1601م مرسوما في الموضوع ، كإجراء وقائي . انظر : *Eldred D. JONES; The Elizabethan image of Africa*. Folgers books, Published by the Folger Shakespeare Library, 1971, pp. 18-19.

⁷⁴ - عن طبيعة هذه الأوبئة والأمراض ، وقد كانت متعددة ، راجع رسالتنا ، م. س. ، صص. 92-90 .

وخصص لهم ، بدل ذلك ، مكان غير بعيد عن أبواب المدينة نصبوا فيه حوالي ألفي " نواله " ، لإيواء حوالي 10.000 نسمة تقريبا⁽⁷⁵⁾ ، وفي شهر يوليو ، أي بعد ما يقرب من ثمانية أشهر على إقامتهم ، أتى حريق على المخيم بكامله ، فهلك حوالي 100 شخص ، انضافوا إلى 4.000 من ضحايا الطاعون و 2.000 آخرين من ضحايا الإسهال⁽⁷⁶⁾ . ولهذا قرر كثير من هؤلاء النازحين العودة إلى الأندلس ، بسبب هذه النكبات كلها ، واضطر البعض منهم إلى التحول إلى المسيحية كي يسمح له بالعودة⁽⁷⁷⁾ .

ومهما يكن من أمر ، فإنه إلى جانب الحروب والاستبداد والمجاعات ، والأوبئة ، والهجرة الخارجية ، كانت هناك كذلك كوارث أخرى تضرب البلاد من وقت لآخر مختلفة بدورها خسائر بشرية مهمة .

4 - كوارث طبيعية مختلفة

تتمثل معظم هذه الكوارث بصفة خاصة في تردي الأحوال الجوية وفي الهزات الأرضية .

وهكذا فبالنسبة لتردي الأحوال الجوية ، سجل الوزان⁽⁷⁸⁾ ، مثلا ، أن قوافل المسافرين كثيرا ما كانت تدهمها الثلوج في فصل الشتاء عبر مسالك جبال الأطلس ، فيهلك الجميع تحت ركامها أو من شدة البرد .

وذكر دي كويش DE GOIS⁽⁷⁹⁾ من جهته أنه ، نتيجة لانخفاض درجة الحرارة كثيرا خلال شتاء 1514-15م ، هلك في ألكال بالجنوب حوالي 500 شخص .

وأورد ابن القاضي⁽⁸⁰⁾ أنه في عام 997 هـ / 1589م ، المعروف بـ " علم الثلجة " ، وبالضبط في شهر صفر / يناير ، هلك من جراء كثرة الثلوج وقساوة البرد " جماعة لا يحصى عددهم " من جيش السلطان المنصور السعدي . وشيئها بهذا تقريبا ما حدث لـ " محلة " السلطان المولى إسماعيل العلوي بثنية الكلاوي في

75 - ROSENBERGER et TRIKI: op. cit., 1973, pp. 113-114 .

76 - Caro BAROJA: Los judios en la Espana y contemporanea. 1: 213. Cité par -

ROSENBERGER et TRIKI: op. cit., 1973, p. 114.

77 - E.D. SEMMLACH: "une chronique juive de Fez le Yahas Fes de Ribbi Abner Hasserfaty". Hespéris, 1934, t. XIX, p. 92 .

78 - م. س. ، 1 : 59 و 258 .

79 - op. cit., p. 142 .

80 - أحمد ابن القاضي : المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور . تحقيق : محمد رزوق ، جزان ، مكتبة المعارف ، الرباط ، 1986 ، 2 : 285 .

سنة 1090هـ/1679م⁽⁸¹⁾ . وإذا كان هذا ما تعرضت له جيوش لها من العدة ما لها، فما بالك بالفقراء ، والمساكين ، والمعوزين ، وعابري السبيل ، وغيرهم ممن لم يكن لهم مأوى أو مستقر ، أو ممن لم يكونوا يتوفرون على أقل المتطلبات لمواجهة أحوال قاسية كهذه . وكم كان عدد هؤلاء كثيرا ، على ما يبدو . وكانت الرياح القوية والعواصف الشديدة ، والسيول والفيضانات ، تخلف بدورها ، أحيانا ، خسائر جسيمة في الأرواح ، ودمارا كبيرا في الممتلكات . ففي أحد أيام رمضان من عام 1052هـ/1642م ، هبت على منطقة فاس ريح قوية خلفت حوالي 120 قتيل بالمدينة وحدها ، وذلك بسبب الردم⁽⁸²⁾ . وفي شهر ذي الحجة من عام 1094هـ/1682-83م وبعده " حملت الأنهار وحمل وادي ورغة على سواحله ، فأخذ من كان قريبا منه ، قيل حمل منهم نحو ستة آلاف نفس"⁽⁸³⁾ . وفي إحدى ليالي شوال من عام 1155هـ/1742-43م " بعث الله ريحا عاصفة ، تهدمت بسببها جدران وحيطان ، ومات بها من تم أجله ، وكان مثلها في الليلة بعدها . وفي هذه الأيام انهالت السماء بالأمطار فتهدمت بذلك دور كثيرة ومصارى وأطرزة وغيرها مما لا يحصى كثرة ، وطال المطر متتابعا نحو أربعين يوما ، وامتلأت الأودية بالسيول ، وحملت من الماء ما لا يوصف ، واستاق وادي سبوا كثيرا من خشب الأرز والأشجار العظام ، وهدم قوسين من قنطرته ، وكان الناس في كرب عظيم وهول شديد من ذلك الهدم والردم ، ومات به أقوام ... وذهب أيضا سيل الوادي المذكور بكثير من نعم بني مالك بالغرب ومواشيهم ..."⁽⁸⁴⁾ ، وفي ربيع 1308هـ/1890م تسبب تهطل الأمطار الغزيرة ، بشمال المغرب لمدة حوالي عشرين يوما متتاليا ، في فيضانات مهولة وسيول مدمرة ، اقتلعت الأشجار وجرفت الدور والأنعام ، وبلغ عدد الغرقى بفاس وحدها ما بين 85 و 100 شخص⁽⁸⁵⁾ .

81 - الضعيف : م. س. ، ص. 63 .

82 - الحوليات . م. س. ، ص. 12 .

83 - النشر . م. س. ، 2 : 312 .

84 - الحوليات . م. س. ، صص. 69-70 .

85 - ذكره البزاز : م. س. ، ص. 318 ، نقلا عن تقرير فرنسي :

Archives du ministère de la guerre. Vincenne, rapport de CHAUCHENEZ, du 14 1890.

بل إن العواصف والريعود القاصفة ، وتقلب الأحوال الجوية ، كثيراً ما تحدث حتى في عز فصل الصيف فتسبب في انتشار " حمى قد لا ينجو منها إلا القليل ".⁽⁸⁶⁾

ومعلوم أن هذا النوع من الكوارث سجل ، على الأقل ، أربع مرات في القرن 16م ، وخمسا وعشرين مرة في الذي بعده ، وخمس مرات في القرن 18م ومرتين في القرن 19م⁽⁸⁷⁾ .

وسجلت من الزلازل والهزات الأرضية واحدة ، على الأقل ، في القرن 16م ، وكان ذلك في منطقة فاس في شهر محرم 977 هـ / يونيه 1569م⁽⁸⁸⁾ ، وعشرون في القرن 17م ، وست في الذي بعده ، وهزتان أو زلزلتان في القرن 19م⁽⁸⁹⁾ .

ولعل أخطر هذه الهزات تلك التي ضربت معظم مناطق شمال البلاد في ربيع 1033هـ / 1624م ، حتى إنه في مدينة فاس وحدها " سقطت الديار ، وماتت تحت الردم خلق كثير لا يحصى عددهم ، ولم يسلم من الديار إلا القليل ... والحاصل أن ... فاسا خربت ديارها وانقطعت طرقها بالهدم ، فمن الناس من مات هو وأولاده وأهل دياره ولم يسلم منهم أحد ، ومنهم من خرج من تحت الردم جريحا كسيرا ... "⁽⁹⁰⁾ . وسجلت كذلك عدة هزات في أوائل سنة 1169هـ / 1756م ، عم بعضها مجموع البلاد وعدة دول مطلة على البحر المتوسط والبرتغال ، ترتب عنها سقوط العديد من البنايات وهلاك عدد كبير من الناس ، لاسيما في سلا بسبب خروج مياه البحر إلى البر نحو مسافة ، " فمات فيه خلائق كثيرة ، وصادف قافلة ذاهبة لمراكش ، فيها من الدواب والأدميين ، فمات الجميع ... وأما مدينة مكناس الزيتون فـ ... أغلب دورها وقصورها انهدمت ، بل سقط من ديارها نحو الثلثين ، ووقعت صومعة مسجدتها الأعظم وكثير من دور القصبة وكثير من المساجد ، ومات بالردم خلائق كثيرة ... ما ينيف عن خمسة آلاف شخص ... وقيل أحصي من مات ... نحو العشرة آلاف ، ومن لم يحص لا يعلمه إلا الله تعالى ".⁽⁹¹⁾

86 - الوزان : 1 : .

87 - راجع رسالتنا . م. س. ، ص. 463 وما بعدها .

88 - أحمد ابن القاضي : لقط الفرائد من لفاظة حقق الفوائد. نشر : محمد حجي ، الرباط ، 1976 ، ص. 310 ، والناصري : م. س. ، 5 : 88 .

89 - انظر : الضعيف : م. س. ، ص. 409 ، وراجع رسالتنا . م. س. ، ص. 463 وما بعدها .

90 - النشر . م. س. ، 1 : 261 .

91 - الحوليات . م. س. ، صص. 77-78 .

وهكذا يتبين ، من خلال هذه النماذج ، أن الثروة البشرية في المغرب الحديث كانت تحيي في محيط صعب للغاية ، لذلك كان من الطبيعي ألا تكون بمنأى عن الهزات العنيفة التي عرفتها البلاد ولا بمعزل عن مخلفاتها وانعكاساتها السلبية . ولهذا كانت الخسائر ، أحيانا ، فادحة ويصعب تعويضها ، بسبب تكرار تلك الفواجع في فترات متقاربة في كثير من الأحيان ، فكان من نتائج ذلك ما وقفنا عليه من خلخلة لبنية السكان ومن أزمة ديمغرافية .

والواقع أننا لم نتطرق في هذا المجال إلا للظواهر الأكثر وضوحا وشهرة في المصادر والأكثر حضورا في الأبحاث والدراسات ، وإلا فإن هناك ظواهر ووقائع أخرى كثيرة لا تقل انعكاساتها خطورة على الوضع الديمغرافي مما عرضنا له حتى الآن ، ولعل أهمها ارتفاع نسبة الوفيات في صفوف المواليد والرضع والأطفال ، ليس فقط بسبب تدني الأحوال المعيشية للسكان ، بل ولقلة الوعي بالوقاية من الأمراض ، ولعدم توفر الشروط الصحية والمرافق الضرورية في معظم المساكن والبيوت في البوادي خاصة⁽⁹²⁾ ، ناهيك عن عدم الدراية بتمريض الأطفال وبطرق علاجهم ، التي كانت من اختصاص العجائز⁽⁹³⁾ .

وخلاصة القول إن العوامل المؤثرة سلبا في الوضع الديمغرافي والسكاني ، في تاريخ المغرب الحديث ، لم تكن قليلة ، بل كانت على العكس من ذلك كثيرة ومركبة ومتداخلة ، وأن دورها في استنزاف الثروة البشرية ، وفي الحد من تكاثر عدد السكان أو تراجعهم ، بلغ حدا من الخطورة ما أدى إلى حدوث أزمة ديمغرافية ، من الحجم الذي وقفنا عليه في هذا العمل المتواضع .

أما ما حل بأجهزة المخزن من ضعف ، وما أصاب الهياكل الاقتصادية من شلل ووسائل الإنتاج والبنى التحتية من تدهور ، أو ما لحق البنيات الاجتماعية من عجز ... وغير ذلك مما يعبر عن أزمة حقيقية وعامة ، إنما هي انعكاسات مباشرة ونتائج طبيعية لهذه الأزمة الديمغرافية ، وإن بدا بعضها ، أحيانا ، من مسبباتها .

وغير خاف أن هذه الأزمة الشاملة ، المتشعبة الجذور والمتعددة الوجوه ، أسقطت هبة المخزن في الداخل كما في الخارج ، وقيدت من حرية المغرب وحدت من مبادراته وقدرته على المناورة ، سياسيا أم عسكريا ، لاسيما في القرن 19م

92 - عن ظروف السكن وطبيعة بعض المساكن في القرن 16م خاصة ، راجع رسالتنا . م .

س.، صص. 67-76 .

93 - راجع النزهة . م . س.، ص. 119 .

حيث بدا منها كما ومتقلا بأعباء موروثة ، فلم يعد قادرا على مسايرة ذلك العصر ولا على مجاراة الدول ، الأوروبية خاصة ، التي كانت قبل ذلك تخطب وده ، فبالأحرى مقاومة أطماعها فيه. فقد كانت الهوة قد اتسعت كثيرا بينه وبينها ، سواء من حيث التطور السياسي والعسكري والاقتصادي والاجتماعي ، أو من حيث القدرة على استغلال الموارد والاستفادة من الإمكانيات المتاحة ، أو من حيث العدة والعدد ، وذلك نظرا لقلّة سكانه وضعف بنياته وتقلص موارده ...

وعلى أي ، فقد حاولنا ، هنا ، إثارة الانتباه إلى أنه يصعب فهم تاريخ المغرب السياسي والعسكري أو الاقتصادي والاجتماعي والعمراني ، أو الفكري والديني ، في غياب الإلمام بتاريخه الديمغرافي وبأحوال سكانه . ولاشك أن ثمة بياضات في الموضوع لم نتمكن من الإحاطة بها ، كما لم نقدم ، أحيانا ، أجوبة شافية أو مقنعة لكل ما أثير من نقط أو أفكار ، إما لأسباب تتعلق بالجانب المصدري والوثائقي ، أو تتعلق بالمنهج أو بغير ذلك ، ونتمنى أن تحظى بالاهتمام.

فقد تبين أن المشاكل الديمغرافية ، التي عرفتها بلادنا في العصر الحديث - مهما تكن أسبابها وعواملها - كانت فعلا عميقة ، وأن دورها كعامل مفسر للأزمة العامة جلي لا غبار عليه ، ولا يكفي حصر تلك العوامل أو الأسباب في دور الصراع على السلطة وغيرها من العوامل السياسية والعسكرية أو الاقتصادية والاجتماعية ، التي لم تكن في الواقع إلا نتائج لأزمة أعمق .

صحيح إن الأزمة كانت متشعبة ومعقدة ، بحيث لا يمكن أن يستثنى منها استحضر الدور السلبي لسيادة الاقتصاد الرعوي أو شبه الرعوي على حساب اقتصاد أكثر تنوعا ومتانة ، أو تراجع ظاهرة الاستقرار وتقلص عدد المدن والحوضر ، وتخلّف دورها الاقتصادي لصالح المناطق الجبلية أو الواقعة منها وراء سلسلة جبال الأطلس ، كما لا يمكن أن نغفل الدور الذي لعبته القبائل في الحياة السياسية ، ولا دور الزوايا في الحياة الروحية لتلك القبائل ... إلا أن كل هذه العوامل ليست في الواقع إلا ظواهر وثيقة الصلة بالجانب الديمغرافي ، تفسر التحولات والتغيرات البطيئة للتوازن الاجتماعي والاقتصادي وعمق الأزمة العامة ، كما لاحظ ذلك جاك برك J. BERQUE⁽⁹⁴⁾ ، أحد المهتمين بتاريخ المغرب .

ومن جهة أخرى ، فإنه مهما تكن النتائج المتوصل إليها في هذا العمل ، سيبقى الموضوع في حاجة إلى مزيد من الدراسة والبحث والتمحيص ، نتمنى أن

⁹⁴ "Qu'est-ce qu'une tribu nord-africaine?". Repris dans *Maghreb, histoire et société*, - Gembleur, Duculot et Alger, S.N.E.D., 1974, pp. 22-34. (Reprise et mise à jour de la contribution à hommage à Lucien FEBRE. Eventail de l'histoire, Colin, 1953, pp. 261-271.)

تتم على يد مجموعات أو هيئات متخصصة ، بحيث تتضافر فيه جهود الباحثين والمهتمين ، وذلك نظرا للصعوبات الجمة التي تحيط به ، ولاسيما عندما يتعلق الأمر بمحاولة تناوله على امتداد زمني ومكاني طويل مع قلة الوثائق . ولتدليل هذا النوع من الصعاب، ولتفادي الأحكام العامة أو المتسرعة، نرى من المفيد الانكباب أولا على التدقيق في المصطلحات الديمغرافية الواردة في مصادرنا، والتعريف بتلك المصادر التي تفيد الموضوع، وذلك بموازاة مع الأبحاث والدراسات المونغرافية المحددة في الزمان والمكان، باعتبارها - في نظرنا - الطريق الأسلم والأقوم للوصول إلى نتائج واستنتاجات وأحكام أضمن، وفي هذا الإطار جاء مقالنا حول دراسة الظاهرة نفسها حول فاس وفي الفترة ذاتها⁽⁹⁵⁾ . فهل تلبي المصادر فضول الباحثين لدراسة هذا الموضوع في تاريخ مختلف مدن المغرب وقبائله وجهاته ؟

⁹⁵ - نعني بذلك : " الأزمة الديمغرافية في تاريخ فاس الحديث " . مجلة كلية الآداب بوجدة ، العدد 6 ، 1996 .

